أميرة المؤمنين

زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور

وُلدت بطلة قصتنا في الأيام السعيدة المبهجة!

فقد ارتفع شأن دولة الإسلام، وامتلأت خزائنها بالذهب، وتمرغ الحكام في النعيم والرخاء.

إنها زبيدة حفيدة أبي جعفر المنصور: منشئ بغداد.

ذات الحسب والنسب عالية المقام، مشهورة الأدب والكمال، موفورة الملاحة والذكاء.

عُقد قرانها على ابن عمها الرشيد عام ١٦٥ هجري، وزُفّت إليه وهي يومئذٍ لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها.

أما حفل زفافها فكان شيئاً أسطورياً!!

لم يتوان رواة التاريخ أن يحدثونا بإسهاب عن تفاصيل عرسها، فتشعر كما لو أن حدثاً خرافياً من حكايات ألف ليلة وليلة، فقد كانت تتهادى في ثوب عُرسها المطرز بكنوز من الأحجار الكريمة النادرة، فتخطف الأبصار التي تتساءل متعجبة: كيف تستطيع

obeikandl.com

العروس أن تسير حاملة هذا الثقل الضخم الكبير دون أن تنوء بحمله؟! ألا ترهقها كمية الجواهر الكثيرة التي تتكاثف على ثوبها؟!

بالرغم من ذلك، فإن الذي أُهدي إليها من مجوهرات في عُرسها لشيء يذهل العقل.

أما اللؤلؤ، فقد تم نثره على جنبات طريقها، فوق البساط الموشى بأسلاك الذهب الذي سوف تمشي عليه.

وقد استطاعت هذه الأميرة أن تفرض وجودها من أول لحظة، كانت شخصيتها قد حددت ملامحها واضحة.

كانت معتزة بنفسها فخورة بأصولها، لها حضور قوي تمتزج فيه الرهبة بالوقار، تلمع عيناها ببريق أخاذ لا يقاوم.

وما كاد يمضي على زواجها من الرشيد أربعة أعوام حتى كانت قد ولدت له "محمد الأمين" وبعد ذلك بعام أصبح الرشيد هو خليفة المسلمين، وكان يومئذٍ في العشرين من عمره.

وقد امتازت زبيدة عن نساء عصرها بأنها شخصية متفردة.

كانت تنفر من التقاليد والمحاكاة نفوراً شديداً، مما جعلها تصمم لنفسها الأزياء، حتى لا تضطر إلى أن تلبس أثواباً تتشابه في تصميمها مع غيرها، بل إنها أدخلت تعديلاً كبيراً على عصابة الرأس، فقد كانت عادة الأميرات أن يزيّنَّ عصابة الرأس بالمجوهرات والأحجار الكريمة، فخالفت هذه العادة، فوضعت على

العصابة قطعة من النسيج الأسود الرقيق، مما أكسبها انعكاساً جليلاً وقوراً، حتى أخذ نساء القصر يقلدونها في ذلك. وتكاد تكون زبيدة هي المرأة المسلمة الأولى التي استعملت الأواني الفضية والذهبية، كما أنها الأولى التي كانت تزين نعالها وقباقيبها بالمجوهرات وخيوط الذهب، وكانت مشهورة بأناقتها الباهظة التكاليف، فكانت لا تبخل على أثوابها، حتى ليُقال: إن لها ثوباً بلغت تكاليفه خمسين ألف دينار!!

كذلك عرفت زبيدة باهتمامها بالجواري، فقد كانت تحرص على أن تنتقي ذوات الجمال والمعرفة والكتابة والشعر، وكانت لها مائة جارية تخصصن بحفظ القرآن وتلاوته ليل نهار، فكان المارة بجوار القصر يسمعون صوت الجواري وهن يقرأن القرآن في كل الأوقات.

ولقبت زبيدة بـ"أم المحسنين"، فلقد اشتهرت بأعمالها الخيرية الكثيرة، وعطاياها التي ليس لها حد، فكم أنشأت من مدارس ومستشفيات، وأمرت بتأسيس الملاجئ لإيواء اليتامى والمساكين، ومن آثارها الجليلة التي كان لها أكبر الأثر في منفعة الناس: حفر الآبار والعيون ومنها عين "الشماس" حيث أنفق عليها ألف ألف وسبعمائة ألف دينار. ويُنسب إلى زبيدة مسجد زبيدة أم جعفر بغداد.

وكما اهتمت زبيدة بالعمليات الإصلاحية والمرافق الخيرية، فلقد اهتمت أيضاً برجال العلم والأدب والفن في عصرها، وجمعت

حولها أرباب الفنون والعلماء، تغدق عليهم من مالـــها، وتكرمـــهم بالعطايا والمكافآت.

ولكن رغم كل هذه الأفعال لجليلة والأعمال العظيمة، فإن التـــاريخ لم يغفر لزبيدة غلطتها الوحيدة! كانت هذه الغلطة هي نقطة ضعفها.

وكانت نقطة ضعفها هي: حبها الزائد لابنها الوحيد ــ الأميـــن ــ لقد صبّ التاريخ كل غضبه وسخطه على ذلك الحب الذي فاق الحـــد، حتى تحول إلى طاغية مستبد، أضر بالأمة واستخف بمصالحها.

في أول الأمر دفعها حبها الكبير لابنها الأمين: إلى تدليلـــه، فقـد أغدقت عليه مشاعرها الفياضة حتى أفسدته، فشب لاهيـــاً فاســداً، لا يشغله شيء سوى حب الذات والشهوات وأصبح محركـــه الأساســي غروره وغرائزه، بالرغم من هذا فإن زبيدة وقفت تحارب الجميع مـن أجله وتفلسف أخطاءه، ثم انتهى الأمر بأنها أرادت أن تجعلـــه وريثـاً للملك على عرش الخلافة، فأخذت تسعى مستخدمة كل الوسائل، حتـى تضمن لابنها خلافة المسلمين، غاضّة بصرها عن المساوئ والعيـــوب التي كانت واضحة جلية في هذا الشاب الخليـــع، وأخـــذت تحـــاصر زوجها الرشيد كي يعطي البيعة للأمين، حتى لا ينازعه في الخلافـــة ابنه المأمون، ثم أخذت تشن حرباً شعواء على كل من يتجاسر فيذكـــر ابنها بسوء، وتصب غضبها على كل من ينتقد سلوكه، أما هؤلاء الذين تجرأوا وفضّلوا المأمون على ولدها، وأشادوا بمحاسنه: فقد كانوا فـــي نظرها مجرمين آثمين، لا يجوز الصفح عنهم.

وكان جعفر البرمكي من زمرة هؤلاء المجرمين! لأنه كان نـلقداً صريحاً لسلوك فلذة كبدها: الأمين، فأصبح هدفاً لطغيانها، تكن لـــه الكراهية العمياء، وتتآمر عليه لإزاحته من الطريق.

وكان جعفر البرمكي من أخلص ندماء الرشيد وأقرب الناس إلـى قلبه، وكان لا يكاد يفارقه فهو وزيره الصـــادق صـاحب الـرأي السديد، فكان الخليفة لا يبرم أمراً دون استشارته، وكان يعتمد عليـه في أغلب شئون الولاية، وقد كان جعفر بقدر ما ينتقد الأمين، بقـدر ما يشيد بالمأمون ابن الرشيد، وكان يحبه كثـيراً ويقـدره لصفاتـه الجليلة، فقد نشأ المأمون نشأة صارمة، لم يفسده أحد بتدليل زائـــد، فاجتهد في المعرفة والتعلم حتى أصبح أميراً فـاضلاً مـهذباً نـافذ اللب، واسع الفهم طيب الخصال، مع فروسية قوة نـــادرة، فأحبـه الناس جميعاً، وتبوأ في قلوبهم مكانة عالية.

لكن في عام ١٨٦ هجري: حدث الأمر الذي فجّر بعده بركاناً.

في هذا العام ذهب الخليفة للحج، مصطحباً معه زوجتـه زبيـدة وابنيه الأمين والمأمون، وعدداً كبيراً من الأمراء والأعوان، ومعـهم وزيره جعفر بن يحيى البرمكي، وبعد إتمام مراســم الحـج، عقـد اجتماعاً طارئاً دعا فيه ابنيه وزوجته وجعفر، بالإضافة إلى بعـض العلماء والوزراء ومجموعة من خلصائه، وفيه كتب الرشيد وصيته، وأعلن بيعته لابنه المأمون بخلافة العرش وولاية العـــهد، وكتـب

المواثيق على هذه البيعة، وأشهد عليها الحضور، ثم طلب من الأمين والمأمون أن يقسما بيمين الطاعة والولاء بكل ما جاء بالوصية، فلما أقسما: أخذ جعفر بيد الأمين أمام الحاضرين جميعاً، وطلب منه أن يردد وراءه: "إذا خنت الأمانة فليقهرني الله"، فرددها الأمين ثلاث مرات. كل هذا وزبيدة جالسة مقهورة من الغيظ والهزيمة، ولا تقوى على المجادلة والعصيان، فهاهو الهدف الذي سعت إليه يتحطم أمام عينيها، ولم تجد أمامها سوى جعفر عدواً لأمانيها، حيث لمحت طيفه وراء الأحداث، فأخذت تنظر إليه بنظرات كالسهام ملؤها الغضب والحقد، وقررت من هذه اللحظة أن تقضي على جعفر بأي ثمن.

فلابد له أن يموت، كي يجلس الأمين على العرش.

ولقد استطاعت زبيدة أن تفي بوعدها لنفسها بعد مرور عام واحد على ذلك الاجتماع.

ففي عام ١٨٧ هجري قُتل جعفر البرمكي على يد مسرور الجلاد، وراح هذا الوزير العظيم والرجل الحكيم ضحية عاطفة الأمومة واستبداد صاحبة النفوذ.

وبعد مقتله تم تعيين الفضل بدلاً منه بإيعاز من زبيدة، حيث كان الفضل بن الربيع ربيب نعمتها، محبوب ابنها، وواحداً من أخلص أتباعها.

وبعد ذلك بستة أعوام، مات الرشيد خليفة المسلمين.

ولم يضيع الأمين الوقت، اخذ خاتم الخلافة وسيف أبيه وكسوته الخاصة المعروفة، وأخذ لنفسه البيعة من الوزراء، حتى إذا اطمأن لمساندتهم له: خرج إلى الناس فصلّى بهم، ثم خطب فيهم فبايعوه بالخلافة. أما الجيش فقد تولى أمره الوزير الفضل، الذي استطاع بذكائه أن يستقطبه لصالح الأمين، فنكثوا عهدهم مع الرشيد بمؤازرة المأمون، ومناصرة مُلكه، وأعلنوا ولاءهم للأمين خليفة المسلمين، وعليه كافأهم الأمين بمكافأة مالية كبيرة.

أما المأمون، فقد كان في ذلك الوقت في خراسان والياً عليها، حيث كانت الأوضاع غير مستقرة، والفتن والدسائس تموج فيها، ولابد لها من قبضة حديدية تمسك بزمام أمورها، فتولاها المأمون، صاحب الشخصية الفذة والمزايا النادرة، فسيطر على أوضاعها وأخضعها لميزان قوته، فلما وصلته الأنباء باستيلاء الأمين على العرش، لم يراجعه فيما فعل، بل لقد أرسل له الهدايا والتهاني، متمنياً صلاح الأمر.

لكن الأمين أثبت أنه آخر من يصلح للحكم.

فلقد اعتبر أن توليه الخلافة هي رخصة للتلهّي.

لم يشغل نفسه بأمور الدولة، لأنه كان مشغولاً طول الوقت بالتسرية عن نفسه، فجمع حوله الندماء الفارغين، وقسّم الأموال

والجواهر الثمينة من خزينة الدولة على الخصيان والنساء، أما الراقصات فقد اختارهن بعناية من كل البلدان حتى وصل عددهن إلى مائة راقصة، كل واحدة تجيد ألواناً من الرقص مدهشة تخطف الأبصار، بما لها من حركات إيقاعية رشيقة، وبما تتزين به من حُليّ وجواهر ثمينة.

في هذا الترف انغمس الأمين.

أما زبيدة فقد انشرح صدرها برؤية قرة عينها خليفة للمسلمين، بعد أن استخدمت كل مهارتها لبلوغ هذه الغاية، بل لم تجد في نفسها رادعاً من أن تذهب إليه مهنئة في موكب فخم مهيب، تحيط بها الأعلام والرايات والزينات، وحولها ازدحم الناس مشدوهين من فخامة هذا الموكب وعظمته.

لكن أعداء الإسلام المتربصين بالدولة، لم يجدوا فرصة أسنح من هذه، وهكذا بدأت رايات العصيان ترتفع، وبدأت التحركات الثورية تنشط، وزاد الخطر على أمن الدولة وتماسكها.

لكن خليفة المسلمين كان وقتها: مهتماً بشيء آخر!

سعى الفضل بن الربيع وزير الأمين ــ بمناصرة من زبيدة وبالإيعاز إلى الأمين ــ إلى خلع المأمون نهائياً والبيعة لابنه موسى بن الأمين، فقد كان الفضل مذعوراً من فكرة أن يتولى المأمون الخلافة يوماً من الأيام، فلقد خان العهد، وتآمر على الخليفة الأحق،

فهل يتركه المأمون دون انتقام؟! كان يعلم أنه لو قُدّر للمأمون أن يتولى العرش، فلن يتركه حياً دون عقاب، من أجل ذلك أخذ يوسوس في أذن الأمين بالتحايل على المأمون واستدعائه إلى بغداد، وإجباره على البيعة لموسى. لكن المأمون الفطن الذكي أحس بالغدر يتربص به، فرفض الذهاب إلى بغداد، مما عدّه الأمين عصياناً وتكبُراً. وهكذا أخذت نار العداوة تتأجج بين الأخوين خاصة بعد منع الأمين أن يُذكر اسم أخيه في بغداد، وقبض على وكلائه وأتباعه، ثم خلعه، وولى ابنه موسى ولياً للعهد، بعد أن أطلق عليه لقب "الناطق بالحق"، بل إنه أحضر وصية أبيه من مكة المكرمة ومزقها إرباً.

وهكذا نما الشر.

فأُغلقت الطرق بين بغداد وخراسان، وانتشر الجواسيس، وزبيدة وراء الأحداث: تنتظر قهر المأمون وانتصار ابنها، ولأجل التعجيل بالنهاية المرجوة، فقد صمم الأمين على عزل أخيه بالقوة، وأرسل من أجل ذلك جيشاً كبيراً قوامه خمسون ألفاً، حتى يُقال إنه مدرؤي في بغداد قبل ذلك عسكرٌ أكثف منه، ووضع على رأس الجيش علي بن عيسى بن ماهان، وزحف الجيش إلى خراسان، لكن قبل أن يصلوا واجههم جيش المأمون بزعامة طاهر بن الحسين، حيث دارت معركة رهيبة انتصر فيها جيش المأمون، فبعث طاهر بن

الحسين رأس علي بن عيسى رئيس القوات إلى المأمون، وبشّره بالنصر، فلما وصلت الأنباء إلى بغداد بالهزيمة: ثار الأمين، وأقسم أن يواصل الحرب للنهاية، وأن يقضي على المأمون وأعوانه مهما كانت التضحيات، فأخذ يرسل الجيوش مرة تلو الأخرى، لكن الهزيمة لاحقته، وتقهقرت جيوشه أمام طاهر بن الحسين، إلى أن استطاع طاهر الوصول إلى بغداد عاصمة الخلافة، فدخلها بعد قتال شديد، وحصار دام عدة أشهر، وأسر الأمين، ونقله إلى حصن بمدينة المنصور وشدّد عليه الحراسة، لكن الأمين قُتل بعد ذلك على أيدي بعض الجنود، وهو يفر هارباً، ومات وهو في الثامنة والعشرين من عمره، وكانت مدة خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر وبعض الأيام.

فلما وصل النبأ إلى زبيدة أصابتها الصدمة.

لم تقو على احتمال الخبر المشئوم، فسقطت مريضة بسبب حزنها وألمها الموجع على الأمين، وارتدت السواد عليه وقلبها ينزف حسرة وقهراً.

لكن يبدو وكأن المصائب كانت تتزاحم عليها، فلم تكتف الأيام بما أصاب زبيدة من لوعة، وما هي فيه من عذاب، بل أرادت الانتقام منها بسبب أفعالها الشنيعة، وما أزكته من فتن بين الأخوين، وقد كانت أداة هذا الانتقام في يد طاهر بن الحسين.

فإن طاهر لم يترك زبيدة في حالها، فقد صادر أملاكها، وضيّق عليها معيشتها، ووضع حداً لنفوذها، بل لقد حاصرها بالعذاب، وكأنه قد حكم عليها: أن تقضي بقية عمرها وحيدة ذليلة.

فلما وجدت زبيدة نفسها على هذه الحال، وأنها قد أصبحت أسيرة في يد عدو لا يرحم، كتبت إلى المأمون تشكو له، وتطلب أن ينقذها من يد طاهر فقالت له: "كل ذنب يا أمير المؤمنين وإن عظم: صغيرٌ إلى جانب عفوك، وكل إساءة وإن عظمت: يسيرة لدى حلمك، وذلك الذي حباك به الله، أطال مدتك، وأتم نعمتك، وأدام بك الخير، ودفع عنك الشر. وبعد فهذه رقعة الولهى التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكر، فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي، وتصل رحمي، وتحتسب فيما جعلك له الله طالباً وفيه راغباً: فافعل، وتذكّر من لو كان حياً لكان شفيعي لديك".

ثم أخذت تسرد عليه شكواها، وما تلاقيه من عذاب وهوان، وما يعاملها به طاهر من قسوة واضطهاد، وأرسلت الرقعة مع جاريتها "خالصة" وأوصتها أن تسلمها إلى المأمون يداً بيد.

فلما وصلت الرقعة إلى المأمون، وعرف ما فيها: بكا ورقّ قلبه على زوجة أبيه، وأم أخيه، ثم أجاب زبيدة بكتاب لطيف ودود، يطمئنها فيه على حالها، ويصل ودّه معها. ثم أمر برد أموالها

وضياعها إليها، وأنّب طاهر على ما فعله، وأمره برفع قدرها وإصلاح شأنها ورعايتها رعاية كاملة.

بعد ذلك عاشت زبيدة في الجاه والنعيم، يحيط بها حشد من العلماء والموهوبين، حيث فتحت قصرها تتبنى أصحاب العلم والفنون، وتغدق عليهم، وتعين لهم المرتبات، وتجود عليهم بالعطايا، ولم تبخل على المحتاجين والفقراء، بل كانت لهم نعم المعين وأفضل المحسنين.

ولقد شغلت زبيدة نفسها فيما بقي من عمرها بالأعمال الخيرية التي توسعت فيها، والتي لا تزال آثارها موجودة حتى اليوم، واهتمت بصفة خاصة بحفر العيون والآبار، فقد كانت أزمة المياه في ذلك الوقت مشكلة قاسية، حيث كان الماء يباع لندرته وصعوبة الحصول عليه، فأسالته عذباً: منحة مجانية في قلب الصحراء، تقي الناس العطش وترويهم دون مقابل.

وتوفيت زبيدة في بغداد في جمادى الأولى عام ٢١٦ هجري عن عمر يناهز التاسعة والستين، بعد حياة مليئة بالأحداث.